المبدأ الأول ونشأة الكون والوجود عند الطاوية، دراسة وصفية تحليلية

عبد الوهاب مبارك عبد الهادي الجويسري
باحث في مرحلة الماجستير.
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض

The First Principle، the Origin of the Universe,
and Existence in Taoism: A Descriptive Analytical Study

Abdulwahab Mubarak
Abdulhadi Al-Juwaisri
Master's Researcher، Department of Creed
and Contemporary Ideologies
Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University، Riyadh

مستخلص البحث

تناولت في هذا البحث مفهوم التاو والمبدأ الأول، ونشأة الكون، ووحدة الوجود، عند الطاوية فجاء البحث بمقدمة، وثلاثة مباحث المبحث الأول: التعريف بالطاوية، المبحث الثاني: عقيدتهم في الخلق، ونشأة الكون، المبحث الثالث: عقيدتهم في المبدأ الأول، ووحدة الوجود، وقد اتبعت فيه المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: (التاو، الكون، الطاوية، الخلق، الوجود، الصين، السماء، العقائد، الفلسفات، الروح).

Abstract:

This research examines the concept of "Tao," the First Principle، the origin of the universe، and the unity of existence within Taoism. The study is structured into an introduction and three main sections. Section I: An introduction to Taoism. Section II: Their doctrine regarding creation and the origin of the universe. Section III: Their belief in the First Principle and the unity of existence (Pantheism). The researcher employed a descriptive-analytical methodology.

Keywords: (Tao، Universe، Taoism، Creation، Existence، China، Heaven، Creeds، Philosophies، Spirit)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا بحث مختصر في مفهوم التاو والمبدأ الأول، ونشأة الكون، ووحدة الوجود، عند الطاوية، بيَّنت فيه هذه المفاهيم بقدر الطاقة، وهذه المفاهيم من أغمض الأمور في الديانة الطاوية، فإنه من المعلوم أن الديانة الطاوية ديانة غامضة عسرة على الفهم، وما ذاك إلا لأنها تحتوي على مفاهيم فلسفية معقدة، وهذه المفاهيم هي الأمور التي أشرت إليها، فجاء هذا البحث ليساهم في كشف اللثام عن غموضها، ويقرِّبها للباحثين المختصين، لتكتمل الجهود، فالعلم رحم بين أهله.

أسباب اختيار الموضوع، وأهميته:

-بيان مفهوم التاو، والطاوية.

-توضيح خطورة هذه الديانة في العصر الحديث.

فجاء البحث بمقدمة، وثلاثة مباحث.

ومنهجي فيه: المنهج الوصفي التحليلي.

واقتصرت على الوصف والتحليل دون النقد؛ لأني وجدت الحاجة إليه أشد لغموض حقيقة المسائل المبحوثة، أما نقد المفاهيم التي ترجع إليها كتعطيل الرب عن الخلق والصفات، والقول بوحدة الوجود؛ فهو مطروق، والمكتبة الإسلامية عامرة به كتبًا ورسائل وبحوثًا.

واعتمدت في بناء وصفي على كتب الطاوية المترجمة للغة العربية، وكذلك على كتب المختصين في دراسة الطاوية خصوصًا، أو الأديان عمومًا، وكذلك على بحوث ورسائل علمية درست الطاوية.

خطة البحث:

مقدمة: وفيها التعريف بالبحث وحدوده، والمنهج، وبيان خطة البحث.

المبحث الأول: التعريف بالطاوية

* وفيه: تمهيد، ومسائل.

المسألة الأولى: مؤسس الطاوية.
المسألة الثانية: تعريف موجز بالطاوية.
المسألة الثالثة: مصادر الطاوية.
المسألة الرابعة: أماكن وجود الطاوية.
المبحث الثاني: عقيدتهم في الخلق، ونشأة الكون
* وفيه: تمهيد، ومسائل.
المسألة الأولى: مصدر الكون - التاو -.
المسألة الثانية: نشأة الكون.
المبحث الثالث: عقيدتهم في المبدأ الأول، ووحدة الوجود
* وفيه: تمهيد، ومسائل.
المسألة الأولى: حقيقة المبدأ الأول وصفاته.
المسألة الثانية: علاقة المبدأ الأول بالمخلوقات.
المسألة الثالثة: وحدة الوجود.

المبحث الأول: التعريف بالطاوية

تمهيد:

الطاوية أو الداوية أو التاوية من الديانات الصينية القديمة الوضعية، فهي ديانة من وضع البشر وتعاليمهم، ليس ديانة ذات أصل سماوي، وهي من أغمض الديانات الوضعية وأعسرها على الفهم؛ وذلك لأن مبنى الديانة الطاوية على عقيدة فلسفية تأملية، والفلسفات الروحية التأملية من أصعب الفلسفات في الوصول إلى مراد أهلها؛ لأن حقيقتها ما يفرضه الذهن من الشعور والتخيلات والوهم، وما كان كذلك فلا يمكن حده بحد يوصل من خلاله إلى المعنى، ولا يمكن أن يُبرهَن عليه بالمقدمات العقلية، بل طريق الوصول إليه هو التخيل والوهم، وتقريبه يكون بالإشارات التي تساعد الخيال على دركه والوصول إليه.

المسألة الأولى: مؤسس الطاوية:

تكاد المصادر تتفق على نسبة تأسيس الطاوية، للفيلسوف لاو تسي، إما نسبة محققة، وإما على المشهور، وإما نسبة مشكوك فيها، وذلك لأن لاو تسي من الشخصيات التي حصل عليها الجدل في التاريخ، هل هو شخصية حقيقية أو لا، ثم نُسِبت إليها كثير من الأساطير والقصص

التي لا سند لها.

ويقال: لاوتسي، أو لاوتسو، أو لاوتزو، ومعنى هذا الاسم: السيد الكبير، أو الفيلسوف القديم، وهو لقب له وليس اسمًا، فأما اسمه الحقيقي(لي) أي الخوخ؛ لأنه ولد تحت شجرة خوخ(١).

وهذه نبذة مختصرة عن حياته « ففي قرية كيوه - جنى بمنطقة لي بإقليم نشو، كان يعيش رجل شديد الفقر، وبرغم شدة فقره إلا أنه لم يجد صعوبة في أن يتزوج.

وفي السنة الثانية من عهد الإمبراطور الحادي والعشرين من أسرة شو، أي منذ حوالي ٢٥٥٠ سنة، رُزِق الفقير من زوجته ولداً سمياه (لي - ييه - يانج».

ولا يعرف أحد عن حياة لي ييه يانج سوى القليل. . كل ما يعرفه التاريخ أنه أصبح في بواكير شبابه أمينًا للمحفوظات الإمبراطورية بمدينة لو - يانج، وأنه ظل يشغل هذا المركز أعواماً عديدة.

وقد أتاح ذلك العمل للفتى فرصة الدراسة والبحث. وعندما بدأ فيما بعد يعبر عن آرائه في الفلسفة والدين نال إعجاب الكثيرين الذين أطلقوا عليه اسمه الذي عُرِف به وهو» لاو - تسي» ومعناها الفيلسوف العجوز.

ولكن الشهرة لم تغير من حياة لاو - تسي. ومضت السنوات تتابع وهو لا يزال كما هو أميناً للمحفوظات، وكان من المحتمل أن يظل في المكتبة حتى نهاية عمره الطويل، لولا أن حكام الولاية ازداد بهم السوء واستشرى فيهم الفساد، واشتدت عليهم الأنانية، وبعد بهم السفه عن الشرف، فعافت نفس الفيلسوف سفالة السياسيين ومل عمله في أمانة المكتبة، وشعر أنه من المهين له أن يعيش تحت حكم السفهاء، وقرر أن يبرح المكان الذي قضى فيه معظم حياته، وبرغم أنه كان وقتئذ في التسعين من عمره إلا أنه صمم على مغادرة المكتبة الإمبراطورية والهجرة بعيداً عن لو - يانج. . . بعيداً جداً. . ليعيش في الريف بمعزل عن الناس. وهكذا سافر لاو - تسي.

وعندما بلغ حدود الإقليم عرفه حارس الحدود ولم يسمح له بالمرور وسأله لاو - تسي: لماذا تمنعني من المرور؟

وأجابه الحارس: أنت فيلسوف عظيم يا أستاذي. وقد عمت شهرتك الآفاق دون أن تسجل تعاليمك. فإذا أنت بارحتنا الآن فلن يكون لدينا أي سجل لهذه التعاليم.

وسأله لاو تسي: وهل إذا سجلت تعاليمي تدعني أمر؟

أجاب الحارس: نعم يا أستاذي.

---

(١) انظر: الديانة التاوية وعقيدتها في الألوهية، إبراهيم محمد برقان (ص٨٢)، لمحات عن أديان العالم، الركابي (٣٢٠).

وهكذا جلس لاو - تسي ليكتب الأجزاء الهامة من تعاليمه، ويسجلها في كتاب صغير يضم حوالي خمس وعشرين صفحة سماه «تاو - تي - تشينغ».

وعندما أعطى الحكيم هذا الكتاب الصغير الحارس الحدود، سمح له هذا بالخروج من الإقليم، ومنذ ذلك الوقت لم يسمع به أحد بعد ذلك قط. هذا هو كل ما نعرفه عن لاو - تسي [١]».

المسألة الثانية: تعريف موجز بالطاوية:

التعريف بالطاوية موقوف على نظرة المعرف للطاوية، هل هي ديانة، أم فلسفة، أم ديانة وفلسفة؟

فمن رأى أنها ديانة عرَّفها بتعريف صادق على هذه الرؤيا، ومن يرى أنها فلسفة فكذلك حدها بما يناسب اختياره، ومن رأى أنها ديانة وفلسفة جمع بينهما في التعريف.

أما من يرى أنها ديانة فقال في تعريفها: «ديانة صينية شعبية تجمع بين عبادة السلف والطبيعة والأرواح، فيها قدر من تعاليم الاوتسي ومن معتقدات أخرى، ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد، وعارضت السيطرة والاضطهاد، وحذت العودة إلى حياة الفطرة [٢]».

وقال من يرى بأنها فلسفة: « فلسفة تؤكد على الحاجة إلى العودة إلى نهج الطبيعة[٣]».

والأقرب أنها فلسفة وديانة، فالطاوية ديانة فلسفية، لا ينفك أحدها عن الآخر، فهي ديانة عمادها الفلسفة.

ولذلك قال جوزيف نيدهام وهو من أعلم الغربيين في الديانات الصينية: «النظام الطاوي كان مزاجًا فريدًا بين الفلسفة والدين[٤]».

فالتاوية أو الطاوية « ديانة ومذهب فلسفي في وقت واحد، أسسها في القرن السادس قبل الميلاد لاو تسو يخاطب العواطف، وينزع إلى التأمل الصوفي، حاول أنصاره فيما بعد العناية بالكيمياء بحثًا عن إكسير الحياة[٥]».

العقائد:

الطاوية لها اعتقادات عدة، ومتطورة، فالطاوية التي في عصرنا زادت على الطاوية الأولى في

(١) انظر: قصة الديانات، سليمان مظهر (ص٢٣٠).

(٢) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية (ص١١١).

(٣) الفكر الشرقي القديم: جون كولر (ص٣٢١).

(٤) موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، جوزيف نيدهام (ص ١٤٨) ترجمة محمد غريب.

(٥) المعتقدات الدينية حول الشعوب، جفري بارندر (ص٤٢١) ترجمة إمام عبد الفتاح.

الاعتقادات والطرق والمسالك أمورًا ليس هذا محل بسطها[١].

ومن عقائدها:

١- وحدة الوجود.

٢- عبادة الأسلاف.

٣-تناسخ الأرواح.

- طريق الخلاص بالتناغم مع التاو والتسليم للطبيعة.

٥- البحث عن الخلود بتقوية الطاقة الين واليانغ ليحصل الخلود. [٢]

وسيأتي بسط عقيدتهم في الخلق والوجود والإله، ووحدة الوجود.

المسألة الثالثة: مصادر الطاوية:

مصدر الطاوية المقدس هو كتاب (تاو تي تشينغ) الذي كتبه لاو تسي، و» في كتاب التاو تي تشينغ هنالك ثلاثة محاور رئيسية تدور حولها أفكار المعلم لاو تسو المحور الأول هو تقريب مفهوم التاو من ذهن القارئ وجعله على بصيرة داخلية به، والمحور الثاني هو تبيان سلوك الإنسان تجاه التاو وفي الحياة لكي يستطيع التلاؤم مع طريقة عمل التاو وتحصيل الخير الأسمى، أما المحور الثالث فسياسي ويتعامل مع الطريقة المثلى لحكم الناس وتحقيق التاو في المجتمع. [٣]».

المسألة الرابعة: أماكن وجود الطاوية:

الطاوية تنتشر في الصين وتُعد من «أقدم الأديان في الصين، وهي ثاني أكبر خمسة أديان في الصين بعد البوذية، ويليهما الإسلام والكاثوليكية والبروتستانية، كما أن التاوية هي العقيدة الوحيدة ذات المنشأ الصيني من بين الأديان الخمسة الرئيسة في الصين[٤]».

وكذلك الطاوية موجودة في بلدان الشرق كتايوان وماليزيا وسنغافوره وبانكوك، «ويبلغ عدد الطاوين في العالم قرابة ٥٠ مليون نسمة [٥]».

---

(١) انظر: موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، جوزيف نيدهام (ص١٤٨).

(٢) انظر: دراسات في الأديان، ناصر قفاري (ص٤١١)، موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (٢٩٧/٤).

(٣) موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (٣٠٩/٤).

(٤) الديانة التاوية وعقيدتها في الألوهية، إبراهيم برقان (ص٨١).

(٥) دراسات في الأديان، ناصر القفاري، (ص٤٢١).

المبحث الثاني: عقيدتهم في الخلق، ونشأة الكون:

تمهيد:

عقيدة الطاوية في الخلق والمخلوقات ونشأة الكون من العقائد ذات المفاهيم المعقدة الغامضة، ولا غرابة في ذلك، فهي مبنية على فلسفة تأملية روحية، فلا تُدرَك إلا بنوع تكلف من التأملات والخيالات المجردة عن الحقيقة والواقع، فلما كانت عقيدتهم مبنية على خيال ووهم محض، منشأه إطلاق العنان للخيال في تحصيل الحقائق؛ كانت النتيجة هذه العقيدة الطاوية.

وفي هذا المبحث سيكون الكلام عن التعريف المجمل بمصدر الكون _ التاو _ لديهم، تعريفًا مجملًا، يثبت مصدر ومبدأ ومرجع هذا الكون عندهم، فحسب، وتعريفه التفصيلي فسيكون في المبحث الثالث لكون التاو هو المبدأ الأول، والإله عند غيرهم من الديانات، ولن يتم إدراك مصدر الكون إلا بإدراك حقيقة نشأة المخلوقات كما سأبين ذلك في المسألة الثانية من هذا المبحث، ثم تتم حقيقته الكاملة في المبحث الثالث، وذلك لكون التاو وما يتفرع عنه من مسائل من أعقد الفلسفات كما تقدم، فهو نتيجة عملية خيالية، نشأت من أذهان هذه العقيدة، فلن يتم المقصود في موضع واحد، بل لابد من شرحه على مراتب، ثم يجتمع المفهوم في الذهن بطريقة تراتبية.

المسألة الأولى: مصدر الكون - التاو -:

التاو عند الطاوية هو مصدر الكون والخلق، فالطاوية تعتقد أنه قبل نشوء الموجودات، كانت هناك قوة غامضة قديمة وأزلية، هي مصدر كل شيء وإليها يرجع كل شيء، هي مصدر الوجود، وكذلك هي مصدر العدم، هذه القوة هي خلاء وفضاء، ولا يمكن وصفها ولا تسميتها لما كانت في تلك الحالة، فهي قبل الأسماء وقبل الصفات وقبل كل شيء، فكيف تسمى وهي قبل الأسماء، وكيف توصف وهي قبل الصفات، فهذه القوة مصدر الأسماء والصفات وكل شيء، فلا يمكن أن تدرك بشيء هي قبله أصلًا، فهي كالصفر بالنسبة لكل شيء، فلا يمكن أن توجد الأشياء إلا بها، كما أن الواحد لم يكن واحدًا إلا باعتبار الصفر قبله، وكذلك الأعداد كلها صح وجودها باعتبار الصفر، -هكذا زعموا -، فهذه القوة هي التاو عندهم، وهو مصدر الكون والخلق، فهو الصفر بالنسبة لأعدادها، وهو السكون الثابت الذي يصح به تغير المتغيرات.

فالطاوية تتمركز « على مبدأ الطاو الأبدي وإليه تنسب، وهو عامل مشترك في كثير من الفلسفات الصينية المحلية، فكلمة ال طاو كلمة شائعة الاستعمال، وتعني في لغتهم: الطريق، أو الطريقة، أو السبيل، أو الصراط، أو النهج، وإن كان - في التراث الصيني – يختلف معناها من مفكر لآخر.

ومما تجدر الإشارة إليه: هو أن فكرة الطاو كانت معروفة في الصين قبل لاوتزي، بيد أنها لم تكن تحوي ذاك البعد الفلسفي العميق الذي أضافه إليها[١] «.

فنقطة «البداية التي بدأ منها الكون في الفلسفة الطاوية ترجع إلى الطاو: ذلك الأول الأبدي الذي كان أصل كل شئ كما قال لاوتزي» كان مبدأ السماوات والأرض. . كان أماً لآلاف المخلوقات[٢] «.

«فتحت هذه المظاهر المتنوعة التي تتبادل التأثير وتنشأ في تزامن معاً يقبع التاو. إنه الوحدة التي تجمع الذوات إلى بعضها [٣]».

فلذلك يرمز للطاو «في الفكر الصيني بدائرة فارغة هي المبدأ الأول قبل ظهور الموجودات[٤]».

وهذا الرمز هو إشارة لحقيقته الأولية الخالية من كل شيء عندهم، فالتاو «باعتباره المبدأ الأول على نحو مطلق هو بغير سمات أو خواص على الإطلاق. وبما أنه هو نفسه بغير سمات أو خواص، فهو المصدر والشرط الخاص بكل السمات والخصائص، وبهذا المعنى فإنه العدم، ولكنه ليس ببساطة لا شيء، ذلك لأنه مصدر كل شيء. إنه سابق لكل الأشياء الموجودة، يمنحها الحياة والدلالة، ويشكل الواحدية التي تشكل أساس كل التنوع والتعدد في العالم[٥]». وهذا شرح قول لاوتسي عندما تكلم عن الطاو وأراد الإشارة إلى معناه فقال: « إن التاو الذي يمكن الحديث عنه ليس التاو الأزلي، والاسم الذي يمكن أن يسمى ليس الاسم الأزلي، والمجرد من الاسم هو أصل السماء والأرض، أما المسمى فهو أم كل الأشياء [٦]» فيشير إلى أن التاو له اعتباران: الأول: حالته قبل نشوء الخلق، وهي حالة الخلاء والعدم، والبساطة المطلقة، والقوة الغامضة، فهو في هذه الحالة لا يمكن تسميته لأنه قبل كل شيء ومنها الأسماء والصفات، فهو قبلها فكيف يوصف ويسمى، وهو مصدر كل شيء، فعندما «يُقال إن التاو هو مصدر كل الوجود والعدم، فإن كلمة «تاو» تعمل مثل كلمة ذلك، عندما يُقال: ذلك الذي منه ينطلق الوجود والعدم.

---

(١) كتاب حركة العصر الجديد (ص٧٠)، وانظر: الفلسفة الشرقية، محمد غلاب، (ص ٢٢٤)، وكتاب التاو، ترجمة وتقديم هادي العلوي (ص ١١)، والفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة د. عمر عبد الحي ص ٦٧.

(٢) كتاب قصة الديانات سليمان مظهر ص١٦، وانظر كتاب المعتبر الأخلاقي المعاصر لظهور الطاوية، لطيفة بنت عبد العزيز بن عبدالله المعيوف (ص١٠٦).

(٣) مقدمة كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ٢٦).

(٤) كتاب أديان العالم، هوستن سميث ص (٣٢٥).

(٥) كتاب الفكر الشرقي القديم، جمال المرزوقي (ص٣٦٢ إلى ٣٦٤).

(٦) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص ٣١٠).

وتكمن أهمية التاو في إدراك أن هناك شيئاً سابقاً ومتقدماً على الأشياء المختلفة المحددة الموجودة في العالم شيئا يضفي الوحدة على الأشياء الموجودة، والتي تحدد وجود كل شيء، ووظيفته على وجه الدقة. أما ما هو ذلك الشيء فأمر لا يمكن بالطبع أن يُقال، ذلك أن كل ما يمكن الحديث عنه محدود محتوم، بينما لا يمكن أن يُقال إن المصدر محدود ومحتوم. ذلك أنه هو نفسه الذي يضع القيود والحتميات[١] «.

الثاني: حالة بعد نشوء الخلق فهو بهذه الحالة اسمه التاو.

فأنت إذا لحظت جانب المصدر - التاو - للأشياء في وحدته المطلقة لا يمكن لك أن تسميه وتشرحه، وإن لحظته في نشوء الموجودات فيمكن أن تسميه وتتحدث عنه، وستتضح هذه الحالة عند الكلام عن نشوء الكون في المسألة الثانية.

ولذلك لما كان مفهوم التاو باعتباره المبدأ للكون مبنيًّا على فرض من الخيال الذهني، كان تصوره صعبًا، فالطاوية لا يتكلمون عن حقيقة وجودية لها حالة ثبوتية يمكن الوصول إليها بطرق مختلفة، بل يتكلمون عن الخلاء المطلق والقوة الغامضة العدمية التي لا اسم لها ولا صفة ثبوتية لها، وهي مع هذا كله منشأ الكون، » فالتاو هو الفراغ أو اللا وجود أو العدم. ومع ذلك فإنه منشأ كل الظوهر الحية والجامدة، إنه العدم الخلاق الذي يحتوي في صميمه على هيولي الوجود، أو الصفر الرياضي الذي لا تقوم للأعداد قائمة بدونه، فالواحد يليه اثنان ثم ثلاثة، ولكن الواحد لا يوجد إذا لم يكن مسبوقًا بالصفر[٢]».

فهذا لا يدرك بعقل ولا حس لأنه خيال، وما كان خيالًا فطريق تحصيله يكون بالخيال كذلك، «وهذا ما يقودنا إلى نقطة جوهرية أخرى من تعاليم لاو - تو وهي التعليم بدون كلمات، يقول تشوانغ تزو تلميذ المعلم: (من يتصدى للإجابة عن سؤال حول التاو لا يفهم التاو، إذ ما من تساؤل ممكن حول التاو وما من أجوبة. إن طرح أسئلة لا يمكن الإجابة عنها حماقة، وفي الإجابة عن أسئلة لا جواب لها فقدان للمعرفة الداخلية، إن الحمقى وفاقدي المعرفة الداخلية لم يلحظوا قط صيرورة الكون وكيفية عمله، ولم يعرفوا البدايات العظمى؛ ليس بمقدورهم اجتياز الجبل المقدس المدعو كون - لون والتحليق بعيداً نحو الفراغ العظيم) [٣]».

---

(١) كتاب الفكر الشرقي القديم، جون كولر (ص٣٦٣).

(٢) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٣٣).

(٣) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص٣٢٣)، وانظر كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٢٧).

فلذلك أجاب تشوانغ تزو عن طريقة معرفة التاو بهذا الاعتبار فقال: «التاو يعرف بدون مفاهيم، بدون تفكير عقلي يمكن مقاربته بالمكوث في اللا شيء باتباع لا شيء بطلب لا شيء. الحكيم يعلم مبدءاً لا يجد تعبيراً عنه بالكلمات[١]».

فهل يمكن تحصيل هذا النوع من التعليم بالشرح والتبسيط، والحجج العقلية، والمعارف الثبوتية؟ لا يمكن «فهذا النوع من التعليم بدون كلمات يعتمد على دفع المريد إلى معرفة الحقائق عن طريق التأمل الباطني والخبرة الروحية المباشرة، بعيداً عن التلقين [٢]».

وبهذا تدرك غموض هذه العقيدة في الوهلة الأولى، فمن «الغريب أن يكون العنصر الرئيسي في الفلسفة الطاوية غير قابل للتوضيح أو الفهم، وهو مما يعزز القول بأن الطاوية فلسفة غامضة لا يمكن الإحاطة بكنهها أو تحديد مفهوم دقيق لها، يفتتح لاو تزي كتاب ال (التاو تي جنغ) بالعبارة التالية: (ال (طاو) الذي يمكن التعبير عنه. . ليس هو ال (طاو) الأبدي. . الاسم الذي يمكن تسميته. . ليس هو الاسم الأبدي. . هذا الذي بلا اسم. كان مبدأ السماوات والأرض. . والمسمى كان أماً لآلاف المخلوقات) [٣]».

المسألة الثانية: نشأة الكون:

تقرر في المسألة الأولى بيان مصدر الكون وحقيقته، فعلى ما تقرر سابقًا نبني هنا لتكتمل الصورة، وينحل اللغز، تقدم أن التاو هو السكون والخلاء المطلق، والقوة الغامضة، فهذا السكون هو أرض نشوء الكون المتغير، وهو مصدره، فالتاو الفارغ الساكن صدر عنه في وقت من الأوقات، قوتان متحركتان لا تسكنان وهما اليانغ والين، ون هاتين القوتين صدرت الأشياء بطريقة النمو التلقائي، فهاتان القوتان هما التاو في مرحلته الثانية مرحلة نشوء الكون، فالتاو باعتباره مبدأ ساكن فارغ وهو أرض التغير الذي نشأ عنه الكون، وبعد نشوء الأشياء، فالتاو هو مجموع اليانغ والين بالاعتبار الثاني، فإذا لحظت أصل الأشياء ومبدأها أدركت ذلك الشيء الذي قبل كل شيء، وهو مصدر كل شيء، وهو الساكن ليصح أن ينطلق نشوء الكون بطريقة نامية متغيرة دائمة، فلا بد أن يكون ساكنًا سكونًا مطلقًا – عندهم - لينتظم نظام الكون على شيء ساكن، وإلا لم يكن للكون نظام، ثم هذا الساكن هو التاو، ولكن بهذا الاعتبار لا يسمى التاو؛ لأنه في هذه الحالة هو قبل كل شيء ومنها الأسماء، يسمى التاو إن صدر عنه الين واليانغ، فيكون بهذا الاعتبار التاو وهو

(١) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص٣٢٣)، وانظر كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٢٧).
(٢) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص٣٢٣)، وانظر كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٢٨).
(٣) كتاب الأصول العقدية والفلسلفة الطاوية، د. السليمان (ص٦).

مجموع الين واليانغ، وبهذا المجموع ينشأ الكون، ولكن النشوء ليس بطريقة إرادية، وإنما بطريقة تلقائية داخلية، فبدوران الين واليانغ تنشأ الكائنات، ونشوؤها يكون من الداخل لا من الخارج، كنمو الوردة وتفتحها بقوة داخلية _ هذا زعموا _ وهذه القوة هي الين واليانغ، وهكذا ينشأ الكون بطريقة تلقائية، بسبب قوة متحركة لا تنتهي.

فتبين من هذه العصارة أهمية معرفة مفهوم (الين واليانغ) و (النشوء التلقائي) فلذلك أزيد الأمر بيانًا فأقول:

أولًا: (الين واليانغ):

شرح تشو - تان – بي صدور القوتين عن المبدأ التاو ثم حركة القوتين ونشوء الكون فقال: «المطلق العظيم يتحرك بحركته يخلق اليانغ. عندما تصل الحركة أقصى مدى لها تعود إلى السكون، السكون يخلق الين. عندما يصل السكون أدنى مدى له ينقلب إلى حركة، الحركة والسكون يتناوبان وبتناوبهما ينتجان بعضهما بعضًا، عندما ينشط اليانغ والين بشكل متمايز تظهر القوتان، وعندما يتواجد الين واليانغ يحولان نفسيهما إلى العناصر الخمسة الخشب والماء والنار والمعدن والتراب. . . العناصر الخمسة هي عين اليانغ والين، الين واليانغ هما عين المطلق العظيم، المطلق العظيم هو النسبي عندما تظهر العناصر الخمسة يكتسب كل منها خصائصه المميزة. حقيقة المطلق وجوهر القوتين والعناصر الخمسة، كلها تتحد بشكل رائع ليظهر التواحد باندماج القوتين تظهر الآلاف المؤلفة، تتوالد وتحول نفسها بدون حدود[١]».

هذا الكلام يبين فكرة الطاوية في الخلق وهي فكرة جدلية فلسفية، » فالعالم هو صيرورة جدلية وحركة لا تني بين الأقطاب المتقابلة والمتوازنة، والتي رغم تناوبها لا يبغي واحدها على الآخر ولا ينفيه[٢]» هذا مفهومه عندهم.

فلذلك فإن إدراك حقيقة التاو والين واليانغ يتوقف عليهما فهم مفهوم نشوء الكون وحقيقته عند الطاويين، فلابد أن تدرك ذلك بطريقة تدريجية، فبعد أن عرف أن للكون مصدرًا وهو العدم، ثم هذا العدم بعد ذلك هو القوة الغامضة الخالية الساكنة، تدرك بعد هذا - بحسب اعتقادهم - أن «مع مرور الأزمنة تكتل العدم في وحدة هي عبارة عن قوة مبدئية وُجِدت قبل وجود العالم المحسوس، وكل موجود في العالم المحسوس ليس إلا مظهرًا من مظاهر تلك القوة الغامضة، ومع مرور أزمنة إضافية بدأت التحولات الأولية للقوة البدائية عن طريق انقسامها الأول، فانفصلت

(١) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص١٤٣).

(٢) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص١٤٣).

الوحدة إلى ثنائية نتج عنها قوتان تحمل كل منهما صفات مغايرة للأخرى. فأما القسم الأنقى والأخف فتصاعد نحو العلو فتكونت منه السماء، وأما القسم الثاني وقد كان الأثقل والأكثر كثافة فهبط نحو السفل لتتكون منه الأرض. لقد كان تولد السماء والأرض هو التجسد الأول لل (ين يانغ).

ولما برزت مع الطاوية فكرة ال طاو الأول اعتبرت ال (ين) وال (يانغ) متولدة عنه خاصة في تعاليم شوائغ تزي المؤسس الثاني للطاوية، وتبعه على هذا القول جميع المفكرين الصينيين التقليديين من بعده، حيث يعتبرون هذه القوة الغامضة هي مبدأ العالم والكون، وأن الكون قد جاء إلى الوجود كنتيجة للتفاعلات بين قوتي ال (ين) وال (يانغ).

ولهذا مزج لاوتزي مبدأ ال ين يانغ ذي الأصول القديمة في الثقافة الشرقية مع فلسفته لل (طاو). خرج من خلاله بتفسير كلي للوجود، فاعتبر أن ال (طاو) هو الواحد الأزلي الذي تولدت منه الثنائية المتمثلة بال ين يانغ، ومن هذه الثنائية تولد كل ما في الوجود.

يقول لاوتزي: (ال طاو تنسل الواحد، الواحد ينسل الاثنين. . الاثنان تنسل الثلاثة، الثلاثة تنسل العشرة آلاف شيء. . . والعشرة آلاف شيء تحمل ال ين وتحتضن ال يانغ وتحقق انسجامها بالدمج بين هاتين القوتين.)[1] «.

ورُمِز للتاو والين واليانغ برمز بصري «على شكل دائرة تحتوي على مساحتين، واحدة مظلمة والأخرى مضيئة. فالدائرة هي المبدأ الأول قبل ظهور الموجودات، وهي القاع الكلي الثابت قبل ظهور التغيرات؛ لأنه لابد لكل متغير من مرجعية ثابتة تعمل على إظهاره، وتكون بمثابة الخلفية التي تنتظم فوقها المظاهر المتحولة وتتبادل فيما بينها العلائق. أما المساحتين المظلمة منهما والمضيئة، فقد صورتا في وضع دوراني يدل على التناوب الأبدي بينهما، وهو التناوب الذي أظهر الموجودات من حالة اللاتمايز والسكون إلى عالم الشكل والحركة. إن الخط الفاصل بين المساحتين داخل الدائرة يعبِّر عن ظهور الأقطاب إلى حيز الوجود. فهذا الخط هو الذي أحدث شرخاً في الفراغ المتماثل وقسمه إلى أعلى وأسفل، إلى يمين ويسار، إلى أمام وخلف، وانحلت الوحدة السابقة إلى مظاهر ذات قوى متعارضة ومتجاذبة في الآن نفسه. وبما أن اليانغ لا يتجلى في حالته الصرفة ولا الين كذلك، فقد صور القسم المظلم من الدائرة وفيه بقمة صغيرة بيضاء، وصور القسم المضيء وفيه بقعة صغيرة سوداء، لأن في كل إيجاب بعضاً من السلب وفي كل

(١) كتاب الأصول العقدية والفلسلفة الطاوية، د. السليمان (ص١٣-١٢).

سلب بعضاً من الإيجاب. تدعى هذه الدائرة بدائرة التاو[١]».

فتختصر «هذه الثنائية القطبية كل تناقضات الحياة الرئيسية: الخير / الشر الفاعل المنفعل الإيجابي / السلبي، النور / الظلام، الصيف / الشتاء، الذكر / الأنثى. ولكن رغم أن تلك الأنصاف في حالة توتر، إلا أنها ليست متعارضة بشكل تام، إنها تكمل بعضها الآخر وتوازنه. كل نصف يغزو النصف الآخر، ويسكن في أعماق مجال نظيره.

وفي النهاية يجد الاثنان نفسيهما مبددين (متحللين) بواسطة الدائرة التي تحيط بينهما، وهو الطاو في كليته الأولية. في سياق هذه الكلية، لا تبدو المتعارضات أكثر من مراحل في عملية دوران لا نهائية، لأن كل واحد منها يتحول باستمرار إلى نقيضه، مبادلاً مكانه معه، إن الحياة لا تتحرك نحو الأمام أو نحو الأعلى باتجاه قمة أو قطب محدد ثابت. إنها تميل وتتحني على نفسها، مشكلة دائرة كاملة حتى تصل إلى إدراك أن الكل واحد وأن الكل جيد حسن[٢] «.

ثانيًا: (النشوء التلقائي للكون):

نشوء الكون عند الطاوية، يكون تلقائيًا بحركة الين واليانغ من الداخل، فبهما تحصل الأشياء، وحصولها لا بسبب، بل بسبب حركة مستمرة تلقائية تنشأ الأشياء، فالتاوية «بشكل خاص، والحكمة الصينية بشكل عام، ترى أن ظهور الكون وصيرورته يتبعان مبدأ النمو التلقائي[٣]».

قال لاو تسو: «السماء والأرض باقيتان.

لماذا تبقى السماء والأرض؟

لأنهما لا تشعران بوجودهما.

الحكيم يضع نفسه في المؤخرة ليجدها في المقدمة

عندما ينفي نفسه يجد نفسه

لأنه لا يشعر بنفسه فهو قادر على تحقيق ذاته[٤]».

وهذه الجمل فيها رموز مقصودة، فإن «السماء والأرض في هذا المقطع يشيران إلى قوتي اليانغ والين في داخل دائرة التاو اللتين نجم عنهما الآلاف المؤلفة من ظواهر الكون والطبيعة والحياة.

---

(١) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٠-١١).

(٢) كتاب أديان العالم، د. هوستن سميث (ص ٣٢٦).

(٣) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص ٣١٩).

(٤) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص ٣١٩)، الفصل (٧).

فهما لا تشعران بوجودهما؛ لأن الحكمة التاوية ترى أن ظهور الكون وصيرورته يتبعان مبدأ النشوء التلقائي الذي يميز نشوء الكائنات المتعضية[١] «.

وفسر تشوانغ تزو مفهوم النشوء التلقائي في الحكمة التاوية، فقال:

« قد يبدو لنا أن للعالم سيداً، ولكن لا يوجد مؤشرات تدل على وجوده. ربما يؤمن البعض بوجوده، ولكننا لا نرى له شكلاً. قد يكون له حقيقة ولكنه لا يتمتع بشكل. للنظر إلى الجسد الإنساني بعظامه المئة وفتحاته التسعة وأجهزته الداخلية السنة. جميعاً متكاملة وقائمة في أماكنها الصحيحة. هل أستطيع أن أضع البقية لواحدها على الآخر؟ هل أضمها جميعاً على قدم المساواة؟ هل كلها خدم لا تستطيع ضبط بعضها بعضاً؟ هل تتبادل دور السيد والخادم على التوالي؟ ألا ترى أن هنالك شيئاً حقيقياً موجوداً في صميم تكاملها؟ [٢]».

قال فراس السواح شارحًا لهذا النص: «أي: إن الأشياء في المفهوم التاوي تنشأ تلقائيًا وبشكل متزامنًا معًا في معزل عن مبدأ السببية. وكل عنصر في هذا العالم يبدو وكأنه مركز للعالم، تماما كما هو الحال في سطح الكرة حيث تتخذ كل نقطة عليه دور المركز، فلا حاكم ولا محكوم، والكل يحدث من تلقاء ذاته وفي ارتباط وثيق مع حدوث الآخر[٣]».

المبحث الثالث: عقيدتهم في المبدأ الأول، ووحدة الوجود

تمهيد: لا تعتقد الطاوية بالإله والخالق بالمعنى المقرر في الديانات الكتابية، كما أنها لا تؤمن بخلق العالم من خالق فعال خلقه بإرادة واختيار، بل تؤمن بصدور العالم من مبدأ قديم وهو التاو الذي تقدم بيان معناه، وهذا الصدور ليس صدورًا من فاعل وخالق، وكذلك ليس صدورًا من شيء خارج، بل هو نتيجة تلقائية لتفاعل الين واليانغ اللذين هما التاو باعتبار وجود الأشياء، فلا سبب خارجي لحدوث الأشياء، بل سببها منها، فهي العلة والمعلول والسبب والمسبب، فلذلك تنكر الطاوية العلل والأسباب الخارجية، فإن جميع الأشياء شيء واحد، والجميع تجليات للتاو في مظهر خارجي، والجميع يكمن فيه التاو، كما أن جميع الأشياء ترجع إلى حقيقة واحدة وهي الين واليانغ ثم الين واليانغ يرجعان للمطلق وهو التاو، فالجميع وحدة واحدة وشيء واحد لا تكثر فيه في حقيقته، كما يعتقد الطاويون.

(١) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص ٣١٩).
(٢) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ٢٥).
(٣) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ٢٥).

المسألة الأولى: حقيقة المبدأ الأول وصفاته:

إن التاو _ عندهم_ باعتباره هو المبدأ الأول، ينتفي عنه كل شيء، فلا وصف له، ولا اسم له، لأنه قبل كل شيء، ومع ذلك فإنهم يصفون بالصفات السلبية التي لا إثبات فيها، أو بعبارات تقريبية تشير إلى صفات بالقوة لا بالفعل، كقولهم إنه القوة الغامضة، ومصدر كل شيء.

قال لاوتسو: « إن التاو الذي يمكن الحديث عنه ليس التاو الأزلي، والاسم الذي يمكن أن يسمى ليس الاسم الأزلي، والمجرد من الاسم هو أصل السماء والأرض، أما المسمى فهو أم كل الأشياء [١]».

وسبب أن التاو عندهم لا يمكن تسميته لأنه باعتقادهم «بلا تقسيمات ولا تمييزات ولا خصائص، إنه موحد، شأن كتلة لم تمس، بحكم كونه دونما تغيير، لا تعرف البدء ولا الانتهاء. ولكن إذا لم يكن من الممكن تسمية التاو، فما هو ذلك الذي يسمى بالتاو؟؟ - إن «لاوتسو» يهدف بقوله إن التاو يتجاوز كل الأسماء إلى إيضاح أن المصدر والمبدأ الأساسي لا يمكن تسميته، لأنه المصدر ذاته لكل الأسماء والأوصاف[٢]».

ومع هذا فهو «فهو صامت. فارغ. وحيد لا يتغير، دائم الحركة لا يُنهك. قد يكون أمًّا لما تحت السماء. . أنا لاأعرف اسمه، ولكني أسميه ال (طاو) هكذا قال لا وتزي.

إذن فإن (الطاو) هو المطلق الكائن، وهو مراد الكون، إنه ليس منفصلاً عن الكون، بل هو داخل فيه دخولاً جوهريًّا. انبثقت عنه جميع الموجودات[٣]».

وقال لاو تسو عن التاو: « التاو معتم ولا متمايز، ومع ذلك ففي صميمه صورة، معتم ولا متمايز، ومع ذلك ففي صميمه جوهر، معتم ولا متمايز،

ومع ذلك ففي صميمه ماهية أصلية، فيها الحقيقة الناصعة [٤]».

وقال: «منذ القدم إلى يومنا هذا لم يفارقه اسمه دليلنا إلى مصدر الأشياء طرا»، ولكنه يقول في الفصل ٣٢ لاحقًا: التاو يبقى أبدًا بدون اسم، قد يبدو في ذلك تناقضًا للوهلة الأولى، ولكننا يجب أن تتذكر أن كلمة التاو تعني الطريق، والطريق عند لاو - تو هو التيار الكلي الخفي الذي يحرك كل شيء، ويجعل كل الطرق ممكنة رغم أنه ساكن وثابت في جوهره الاسم يدل على شيء محدد

(١) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح، الفصل الأول (ص ٣٥).

(٢) كتاب الفكر الشرقي القديم، د. جمال المرزوقي (ص٣٦٣).

(٣) كتاب الأصول العقدية والفلسلفة الطاوية، د. السليمان (ص١٧-١٦).

(٤) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص١٧١).

معروف وموصوف وثابت، أما التاو فصيرورة دافقة مستمرة.

من هنا فإن الاسم تاو ليس اسمًا بالمعنى المتعارف عليه، بل إشارة لما لا يمكن تسميته أو وصفه بكلمات، وصيرورته هنا تأتي من أجل توجيه وعي المتأمل إلى الحركة الكلية الكونية التي هي مصدر الأشياء طرا، على حد قول النص[١] «.

وقال لا وتسو: « التاو فارغ، ولكن النضح منه لا ينضبه، لا يُسبر غوره منشأ الآلاف المؤلفة[٢]» فكيف يكون الفراغ مصدر كل شيء عند الطاوية؟ يتضح ذلك إن علمنا أن «فراغ التاو أقرب ما يكون إلى مفهوم الصفر الرياضي، فالصفر هو لا شيء، ومع ذلك فبدون الصفر لا يوجد الواحد[٣]».

فالتاو «باعتباره المبدأ الأول على نحو مطلق هو بغير سمات أو خواص على الإطلاق. وبما أنه هو نفسه بغير سمات أو خواص، فهو المصدر والشرط الخاص بكل السمات والخصائص[٤]».

والصينيون كانوا يؤمنون بما يشبه التاو من قديم، وكانوا يرون أنه هو مصدر القوة ومصدر كل شيء، ولم يكونوا يؤمنون بتعدد الآله بمعنى الخالقين، ولكن كانوا يعظمون الأسلاف إلى حد العبادة فلذلك أصبحوا آلهة بهذا الاعتبار» أما المصدر الحقيقي لقدرة الآلهة الصينية، فهو مفهوم مجرد عن الألوهة يتمثل في قوة السماء التي يدعونها تي - بين، والتي عبدت في الصين منذ أقدم عصورها، ويرى كونفوشيوس، وهو أكثر المفكرين تأثيراً في الثقافة الصينية القديمة، أن إرادة السماء إنما تفعل من خلال عناية متضمنة في صلب نظام الطبيعة لا من خارجها، ويقابل هذا النظام الطبيعي، عنده، نظام آخر يسود على المستوى الإنساني في المجتمع هو القانون الأخلاقي، من هنا فإن انسجام الفرد مع إرادة السماء الفاعلة في الطبيعة، لن يتحقق إلا بمراعاة النظام الأخلاقي الذي يشكل انتهاكه خطيئة بحق السماء، وكان الاسم الذي يطلق على ألوهة السماء هذه، في عهد أسرة شائع (١٥٠٠-١١٠٠ ق. م) هو شائع في، الذي يعني الحاكم الأعلى، والتسمية هنا مجازية، لأن هذه الألوهة السماوية لم يكن لها كيان شخصي محدد، وإنما جرى تصورها كقوة تشغل الجهة العليا من قبة السماء، وهي أبعد ما تكون عن مفهوم الإله الأعلى المسير للكون لأنها لا تتمثل في شخصية إلهية معينة، ولا تتصل بالناس عن طريق رسل يشرحون مقاصدها في عالم البشر ويوصلون إليهم شرائعها. فإذا أراد الناس التواصل مع الإرادة الإلهية عمدوا من جانبهم إلى

(١) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٧١-١٧٢).
(٢) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح، الفصل (٤) ص (٣١٢).
(٣) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص٣١٢).
(٤) كتاب الفكر الشرقي القديم، جون كلور (ص٣٦٢).

تقنيات الاستخارة والتنجيم وما إليها يضاف إلى ذلك ما تستطيع الخبرة الصوفية الفردية تحقيقه في هذا المجال. ومنذ حكم أسرة تلوس بعد عام ١١٠٠ ق. م)، تم إطلاق اسم تي - بين على هذه الألوهة الكونية.

والاسم في الأصل يعني: مسكن الروح الكبرى، ولكنه استخدم هذا للدلالة على القوة العظمى التي تعتلي هرم القوى الجزئية في الكون، والتي بقيت مدار المعتقد الصيني حتى القرن الثاني عشر الميلادي.

فإذا جردنا مفهوم ال تي - بين، أو قوة السماء، حتى من القبة الزرقاء التي اعتبرت أحياناً مظهرها المرئي، فإنها تلتقي مع مفهوم التاو الذي لعب الدور الأهم في تاريخ الفكر الديني والفلسفي الصيني منذ البدايات المبكرة لتاريخ الصين[١]».

المسألة الثانية: علاقة المبدأ الأول بالمخلوقات:

علاقة التاو الذي هو المبدأ الأول عند الطاوية بالموجودات، ليست علاقة خالق ومخلوق، وفاعل بإرادة نتج عنه الفعل والمفعول، كما هو مفهوم الخالق في الديانات الأخرى، بل بينهما فرق، و «الفارق بين مفهوم التاو ومفهوم الإله الخالق هو أن الإله أنتج العالم عن طريق الخلق الارادي بينما أنتج التاو العالم عن طريق الخلق غير الإرادي.

الإله خلق العالم بواسطة الفعل، أما التاو فبواسطة اللافعل، ولإيضاح الفرق بين هذين المفهومين للخلق، أقول بأنه في الخلق الإرادي يتم التشكيل من الخارج نحو الداخل، كما هو الحال في صنع تمثال حيث نقوم بإزالة الطبقات الخارجية للحجر الخام وصولًا إلى الشكل الذي نريد. أما في الخلق غير الإرادي فإن التشكيل يتم من الداخل نحو الخارج وبشكل تلقائي، كما هو الحال في نمو النبتة، حيث تتشكل الأجزاء وتتكامل في كل موحد انطلاقًا من الباطن الذي يتجه نحو الظاهر[٢]».

فهذا هو الفارق في اعتقادهم المميز بين التاو والإله الخالق.

فالطاو هذا في اعتقادهم « لم يخلق بقية الموجودات بل هو شيء انفصل وتجزأ ودخل في كل الموجودات، فالطاو يتغلغل في كل شيء ويشمله، فال طاو في كل مكان، فلا يخلو منه مكان[٣]».

---

(١) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٣).

(٢) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ١٣٩).

(٣) كتاب الأصول العقدية والفلسلفة الطاوية، د. السليمان (ص١٦).

فلا يتطابق مفهوم التاو « مع أي مفهوم تعرفه عن الألوهة المفارقة، الخالفة للعالم والمتحكمة به عن بعد، ولا مع أي قانون مفروض على العالم من خارجه، بل هو الخميرة الفاعلة في الكون من داخله، والنظام الضمني الذي يدفع صيرورة عمليات الطبيعة. من هنا فإن هذا المفهوم يتفق مع التصورات الفلسفية والدينية الصينية، التي لا ترى إلى الكون باعتباره ناتجاً لفعالية ملك سماوي، بل ترى فيه ما يشبه الجسد الحي الذي تعتمد وظائفه على بعضها وفق تلقائية طبيعية مغروسة في صميمه، فالصينيون عبر تاريخهم لم يأخذوا مفهوم الألوهة المشخصة المفارقة للعالم بشكل جدي. . . ورغم أن الميثولوجيا الصينية حافلة بالآلهة من شتى الأشكال والأنواع والاختصاصات، إلا أن هذه الآلهة لم تكن في حقيقتها إلا أسلافاً أسطوريين رفعهم الخيال الشعبي إلى مراتب عليا وقدسهم[١]».

قال لاو تسو: « أتأمل الفراغ المطلق البث في سكون الآلاف المؤلفة تنشأ في تواقت معاً، وأنا أرقب عودتها الآلاف المؤلفة في حركة دائبة ولكنها تعود أخيراً إلى أصولها[٢]».

يشير لاو تسو بقوله: «أتأمل الفراغ المطلق البث في سكون»، إلى أن التاوي يطابق « بين نفسه والعالم الذي ينشأ دفعة واحدة، وتنشأ عناصره كلها في تواقت معاً دونما سببية خطية، الكون يحصل في آن معاً وعبر عدد لا يحصى من المتغيرات المترابطة بطريقة محكمة لا يمكن معها حذف متغير واحد دون الإخلال بنظام الكون برمته، وحيث يحتوي كل عنصر من العناصر على الكل، ويتخذ الكل معناه من الأجزاء. ولكن هذه الحركة الدائبة لا تحصل إلا على أرضية ثابتة هي التاو الساكن الذي تنشأ منه الحركة وتعود إليه. التاوي يرى إلى الثابت من وراء المتحرك الثابت هو أم الحركة ومصير الوجود. وتركيز العقل على الثابت يكشف البصيرة [٣]»

وقال تشوانغ تزو تلميذ لاوتسو وأهم شراحه: «في السماء حركة دائبة وفي الأرض ثبات هل يتنازع القمر والشمس مجريهما؟ من يحكم فوق هذه الأمور ويعمل على تنظيمها؟ من يحافظ على اتساقها وتناغمها؟ من بدون جهد يحفظها؟ هل هناك قوة شد خفية تجعلها على ما هي عليه؟ هل يتحتم على الأجرام السماوية أن تجري على هذا النحو فلا تستطيع غير ذلك؟ انظر إلى السحب كيف تسقط مطرها، وإلى المطر كيف يرتفع ثانية فيصنع سحبًا من يحركها لتعطي خبرها؟ و من بدون جهد ابتدر هذا ويعمل على دوامه رياح تنطلق من الشمال وتهب عربية وشرقية، وأخرى

(١) كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص١١).
(٢) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح، الفصل (١٦) ص (٣٢٤).
(٣) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص ٣٢٤)، وانظر كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص١٢٧).

تنطلق نحو الأعلى دونما وجهة آية أنفاس تنفع بها من بلا جهد يدفع هبوبها؟[١] «.

فالجواب الضمني « الذي يقدمه تشوانغ تزو من خلال تساؤلاته في المقطع أعلاه، هو أنه لا وجود لعلة خارجية لكل ما عنده من مظاهر حركة الكون والطبيعة، لأن العلة والمعلول وجهان لحقيقة واحدة هي التاو، والعمليات الطبيعية لا تتطلب عنصراً خارجياً فاعلاً، أو مبدعاً متعالياً مفارقاً يحركها عن بعد، بل إنها تعمل وفق تلقائية كونية شمولية يتبادل من خلالها كل عناصر الكون الأثر والتأثير في سلسلة مترابطة لا يوجد فيها علة ومعلول، ولكن هذه التلقائية الكونية ليست بحال من الأحوال نوعاً من الميكانيكية التي تقول بها المذاهب المادية، لأن كل مظاهر الحركة وتبادل التأثير في عناصر الكون، إنما تقوم على الخلفية الثابتة، والقاع الخفي الساكن الذي تقوم به كل حركة، إن ما يميز هذه الميتافيزيقيا التاوية عن ميتافيزيقيا الأديان والفلسفات الإلهية أي التي تؤمن بوجود إله مفارق للطبيعة[٢]».

المسألة الثالثة: وحدة الوجود:

ما تقدم من تقرير وبيان لحقيقة التاو، وحقيقة الكون ونشوء الموجودات، عند الطاوية، يجعل العقل متجها للحكم بأن عقيدة الطاوية هي وحدة الوجود المطلق، فكل شيء حقيقته واحدة، فالأجزاء ترجع إلى الكل المطلق الذي هو التاو، والتاو هو الين واليانغ اللذين هما حقيقة عناصر الموجودات، والموجودات حقيقتها تعود إلى عناصرها، وعناصرها تعود إلى الين واليانغ، وهما يعودان إلى التاو، فالتاو هو كل شيء وفي كل شيء، ومرجع كل شيء.

فالطاو هذا لم يخلق بقية الموجودات» بل هو شيء انفصل وتجزأ ودخل في كل الموجودات، فال (طاو) يتغلغل في كل شيء ويشمله، فال (طاو) في كل مكان، فلا يخلو منه مكان. . . . إنه ليس منفصلاً عن الكون، بل هو داخل فيه دخولاً جوهريًّا. انبثقت عنه جميع الموجودات[٣] ».

قال تشو - تان – بي: « العناصر الخمسة هي عين اليانغ واليين. اليين واليانغ هما عين المطلق العظيم[٤]».

فال (طاو) في الفلسفة الطاوية «داخل الوجود لا خارجه، أي: لا مفارق ميتافيزيقي مطلق في الطاوية». وقد أنكرت بصراحة أن يكون للعالم صانع من خارجه، فهي - باختصار -

(١) مقدمة كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص ٢٤).

(٢) مقدمة كتاب التاوتي تشينغ، فراس السواح (ص٢٤).

(٣) كتاب الأصول العقدية والفلسلفة الطاوية، د. السليمان (ص١٦).

(٤) كتاب تاو، فراس السواح (ص١٤٣).

صورة جلية من صور وحدة الوجود. حيث ال طاو حاضر في الكائنات لا يفصله عنها مسافة في الزمان أو المكان[١]. »

فلدرك حقيقة وحدة الوجود عند الطاوية لابد من فهم الين واليانغ، واستصحابه هنا، فإن فلسفة «الين يانغ الطاوية إحدى الصور المعبرة عن مذهب وحدة الوجود بشكل جلي، قال بن يانغ: (ليست سوى صور لل طاو)، وكل ما في الوجود هو من تجليات الين بانغ، وبذلك يكون كل ما في الكون هو ال طاو، فليس ثمة إلا وجود واحد. ولذلك يقول جورج أوشارا (بأن عالمنا، ووجودنا، والحياة، ليست إلا شرارة أطلقها احتكاك نشاطي ين، ويانغ من قلب الطايجي. . . ووجودنا المادي يبدأ ما إن يتم استقطاب ال طايجي. . . ثم ينتهي كل ذلك في اتحاد جديد، إلا أن وجودنا الروحي لا ينفك عن الوجود، إنه طايجي نفسه. . . طايجي ونحن الكائنات لسنا سوى واحد وهنا تكمن ذهنية الإيمان).

ووفقاً لهذا الفلسفة، تصنف الموجودات إلى ين ويانغ، بينما الين يانغ هما وجهان لعملة واحدة، وهما في النهاية شيء واحد. ولذلك كانت نتيجة هذا التصنيف أن الأشياء التي هي في ظاهرها متناقضة، هي - في الواقع - متحدة، بل هي شيء واحد غير مختلف [٢]».

فإن نظرة التاوي إلى» المظاهر في نشوئها التزامني، وإلى وحدة الثنائيات وتماثل الأضداد، تقوده إلى رؤية الكثرة في الوحدة والكل في الأجزاء، فالتاو موجود في صلب المظاهر المتنوعة، إنه الخفي الذي يصدر عنه ما لا يحصى من الأشياء في كثرتها، وفي ثنائياتها توضح هذه النقطة الحوارية التالية بين تشوانغ تزو وحكيم كونفوشي اسمه تونغ كاوتزو:

توقع كاوتزو وسأل تشوانغ ترو: أين يوجد ذاك الذي تدعوه بالتاو؟ فأجاب تشوانغ ترو: إنه في كل مكان. فقال تونغ كاو: أين بالتحديد؟ فأجاب تشوانغ تزو: إنه في النملة. فقال تونغ كاو: كيف له أن يوجد في هذه الدرجة السفلى؟ فتابع تشوانغ تزو قائلاً: إنه في بلاطة الأرض هذه. فقال تونغ كاو: إن هذا لعمري أدهى وأمر. فتابع تشوانغ تزو قائلاً: إنه حتى في الروث. وهنا سكت توضع كار فأردف تشوانغ ترو شارحاً وجهة نظره: إن أسئلتك هذه لا تنفع في اكتناه جوهر النار، عليك ألا تسأل عن أشياء محددة يوجد فيها التاو، لأنه لا وجود لأي شيء بدون التاوة.

إن التاو هو الخلفية الساكنة للوجود ومصدر عملية الخلق الدائمة التي تنطلق منه وتعود إليه، وهو متخلل في جميع مظاهر الكون، ويتحول إلى ما لا يحصى من الأشياء المتكاثرة المستقلة من

(١) كتاب الأصول العقدية والفلسلفة الطاوية، د. السليمان (ص ٨).

(٢) كتاب حركة العصر الجديد، د. هيفاء بنت ناصر الرشيد (ص٢٠٤) وما بعدها.

حيث ظاهرها والمتوحدة عند جذورها، وبذلك تنحل الوحدة إلى كثرة وتؤول الكثرة إلى وحدتها الأصلية، وعلى ما يقول تشوانغ تزو: إذا نظرنا إلى الأشياء من ناحية فروقها واختلافها فإننا تجد كل ما حولنا متباعداً مستقلاً، حتى أن المسافة بين أجهزتنا الداخلية تبدو أبعد من المسافة بين دولة تشو ودولة يوهي، أما إذا نظرنا إلى الأشياء من ناحية تماهيها وتطابقها، فإن كل هذه الأشياء تبدو لنا على حقيقتها مدغمة في واحدة [١]».

فالحاصل أن الطاوية ترى الطاو هو أصل الوجود، شامل لكل شيء متخلل فيه، موجود في كل مكان وكل زمان هو بداية كل الكائنات لا وجود للكون أو للكائنات إلا بوجود «التاو»[٢].

(١) كتاب موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح (ص ٣١٥).

(٢) انظر: كتاب الأديان في الصين، سانغ جي (ص٨٣).

الخاتمة

توصلت من خلال البحث إلى عدة نتائج كالآتي:

-إن الطاوية أو الداوية أو التاوية من الديانات الصينية القديمة الوضعية، فهي ديانة من وضع البشر وتعاليمهم، ليست ديانة ذات أصل سماوي.

- تكاد المصادر تتفق على نسبة تأسيس الطاوية، للفيلسوف لاو تسي

- الطاوية تنتشر في الصين وتُعد من «أقدم الأديان في الصين، وهي ثاني أكبر خمسة أديان في الصين بعد البوذية، ويليهما الإسلام والكاثوليكية والبروتستانية، كما أن التاوية هي العقيدة الوحيدة ذات المنشأ الصيني من بين الأديان الخمسة الرئيسة في الصين».

-إن نشوء الكون عند الطاوية، يكون تلقائيًا بحركة الين واليانغ من الداخل، فبهما تحصل الأشياء، وحصولها لا بسبب، بل بسبب حركة مستمرة تلقائية تنشأ.

-لا تعتقد الطاوية بالإله والخالق بالمعنى المقرر في الديانات الكتابية، كما أنها لا تؤمن بخلق العالم من خالق فعال خلقه بإرادة واختيار، بل تؤمن بصدور العالم من مبدأ قديم وهو التاو، وهذا الصدور ليس صدورًا من فاعل وخالق، وكذلك ليس صدورًا من شيء خارج، بل هو نتيجة تلقائية لتفاعل الين واليانغ اللذين هما التاو باعتبار وجود الأشياء،

-إن جميع الأشياء شيء واحد، والجميع تجليات للتاو في مظهر خارجي، والجميع يكمن فيه التاو.

فهرس المصادر

١. ١٠ دقائق مع الفلسفة، سمر حجابي.
٢. أثر الفلسفة الشرقية والعقائد الوثنية في برامج التدريب والاستشفاء المعاصرة، فوز بنت عبد اللطيف الكردي.
٣. أديان العالم الكبرى، محمد شاهين التاعب، تبصير للنشر والتوزيع، ١٤٤٦هـ.
٤. أديان العالم، د. هوستن سميث، دار الجسور الثقافية، ٢٠٠٧م.
٥. الأديان في الصين، سانغ جي، دار النشر الصينية عبر القارات، ٢٠٠٤م.
٦. الأصول العقدية والفلسفية لتطبيقات الطاقة الكونية، محمد السليمان، ٢٠١٧م.
٧. الترجمة الكاملة لكتاب ليتزو فليسوف الطاوية، محسن فرجاني، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م.
٨. جذور الوثنية وأثرها على الأديان والفرق والمذاهب، وضاح بن محمد مساعد، ١٤٤٦هـ.
٩. حركة العصر الجديد، هيفاء بنت ناصر الرشيد، مرز التأصيل للدراسات والبحوث، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
١٠. دراسات في الأديان، ناصر بن عبد الله القفاري، دار العقيدة، ١٤٤٣هـ.
١١. دراسات في تاريخ الشرق الأقصى، عفاف مسعد العبد، المعرفة الجامعية.
١٢. الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور عطار، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
١٣. الديانة التاوية وعقيدتها في الألوهية من خلال كتابها المقدس وموقف الإسلام منها، إبراهيم محمد خال برقان.
١٤. شجرة الحضارة، رالف لنتون، مكتبة الأنجلو المصرية.
١٥. الصلة بين عقيدة وحدة الوجود وفلسفة الطاقة الكونية، عبد الرحمن بن مرزوق محمد الهذلي، دار طيبة الخضراء١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م.
١٦. الطاوية والفيزياء الحديثة، فريتجوف كابرا، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٩م.
١٧. الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، جمال المرزوقي، دار الآفاق العربية، ١٤٢١هـ - ٢٠١١م.

١٨. الفكر الشرقي القديم، جون كولر، عالم المعرفة، ١٩٧٨م.
١٩. قاموس أديان ومعتقدات شعوب العالم، صلاح قنصوه، سعيد جمعة مراد، حسن جير شقير، حسن حماد، كرستيان فنسبان، إكرام لمعي. مكتبة دار الكلمة. ٢٠٠٤م.
٢٠. قصة الحضارة، ول وايرثل ديورانت.
٢١. قصة الديانات، سليمان مظهر، مكتبة مدبولي، ١٤١٥هـ.
٢٢. كتاب التاو تي – تشينغ، فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ١٩٩٨هـ.
٢٣. المتغير الأخلاقي المعاصر لظهور الطاوية وممارسات الطاقة، لطيفة بنت عبد العزيز بن عبد الله المعيوف، ١٤٤٣هـ.
٢٤. المدخل في تاريخ الأديان، سعيد مراد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
٢٥. المعتقدات الدينية لدى الشعوب، إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٢٦. معجم الأديان، جون ر. هينليس، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م.
٢٧. مفهوم وحدة الوجود بين الإسلام والديانات السابقة، مبارك ناصر آل فارح.
٢٨. موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، جوزيف نيدهام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.
٢٩. موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٧م.